المذهب الصوفى

لسهل بن عبد الله التسترى

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

(١)

سهل بن عبد الله ، أحد أعلام الطريق إلى الله ، يقول عنه « العلامة المناوى : حبر تجمل الإسلام بوجوده ، وزين طريق الصوفية بقلائد فوائده وعقوده . كان أوحد زمانه ، أخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة » .

وسهل من شيوخ الجنيد ، وعلى يديه ، تربى كبار الشيوخ فى الطريق .

ومذهب سهل فى التصوف يدور على محورين ، معرفة الله سبحانه وتعالى . معرفة قلبية يقينية قوامها المحبة والشوق والمشاهدة مع ارتباط هذه المعرفه دائما أبداً بالكتاب والسنة .

والمحور الثانى هو التخلق بالأخلاق الإلهية . لأن معرفة الله وحبه ينجبان التخلق بخلقه .

ومن هنا جعل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، العنوان الأكبر لرسالته بعد التوحيد ، قوله : « وإنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .

ولهذا جعل سهل التصوف هو الخلق ، وحصر رسالته فى هذه الدائرة . فكل من من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه .

يقول سهل : « ... التصوف ليس رسما ولا علما ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الاخلاق الإلهية بعلم ورسم .

ويقول : « لاتفتش عن مساوىء الناس ، ولكن ، فتش عن أخلاق الإسلام ، وماحالك فيه ، حتى يعظم قدره فى نفسك ، وتجتهد فى القلبس بتلك الأخلاق » .

ويقول السراج الطوس : ذكر عند سهل بن عبد الله رحمه الله الكرامات فقال : وما الآيات ؟ وما الكرامات ؟ شىء ينقضى لوقته ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

ويجعل سهل من الأخلاق ، سلسلة متماسكة الحلقات يأخذ بعضها بعنان بعض ، حسنها وسيئها فيقول :

« من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون ، فمن سلم من الظن ، سلم من التجسس ، ومن سلم من التجسس ، سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

والأخلاق عند سهل ، هى البراق الذى يصعد الإنسان عليه ، وينال به التوفيق فى الدنيا والآخرة ، فيقول :

« ... لا يستحق إنسان الرياسة حتى يجتمع فيه أربع خصال . يصرف جهله عن الناس ، ويحمل جهلهم ، ويترك ما فى أيديهم ، ويبذل ما فى يده لهم » .

ويقول : « ... من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يغتابون ولا يغتاب عندهم ، ولا يشبعون بطونهم ، وإذا أوعدوا لم يخلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء فى كلامهم ، ولا يمزحون أصلا » .

وفتن الدنيا القاصمة عند سهل ثلاث ، فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة ، من أن يلزمهم حق فى وقت فيؤخرونه لى وقت ثان !

والعيش فى هذه الدنيا على أربعة أوجه ؟ عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء فى العلم وانتظار الوحى ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالما كان أو جاهلا ، زاهدا كان أو عابداً ، فى الأكل والشرب » وسهل هنا يجعل الصوفية من الصديقين .

وسئل عن الصوفى فقال : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر :

وسئل عن المحبة فقال : « موافقة القلوب لله ، والتزام الموافقة لله ، واتباع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مع دوامة الشغف بذكر الله تعالى ، ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل » .

وسئل عن الأنس فقال : أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ويأنس القلب والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً ، فيأنس العبد بالله ، أى يسكن إليه » .

ويقول سهل : « أصولنا سبعة أشياء ، التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الاذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول : « الولى من توالت أعماله على الموافقة » ويقول : علامة المؤمن الكامل أن لا يخاف أحداً دون الله ، إن الله تعالى قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا فمن رجى غير فضلى ، وخاف غير عدلى لم يعرفنى » .

وقال : « حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى » وقال : « إن الله مطلع على القلوب فى ساعات الليل والنهار فأيما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس » .

ويقول : « التوبة فرض على العبد فى كل نفس .. ومن انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر الله فقد ضيع حاله » .

ويقول : « من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان » .

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟ قال : قلب عرف الله ثم عصاه :

وقال : « البلوى قسمان ، بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة ، فبلوى الرحمة تبعث صاحبها

على إظهار فقره وفاقته إليه تعالى ، وترك تدبير نفسه واختياره ، وبلوى العقوبة ، تبعثه على اختيار نفسه وتدبيره » .

وقال : جعل العلم والحكمة فى الجوع ، وجعل المعصية والجهل فى الشبع :

وقال : ما عبد الله بشىء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال :

وقال : إنما صار الإبدال إبدالا ، بأخماص البطون ، و الصمت ، والسهر ، والخلوة .

وقال : من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله :

وقال: من لم يكن مطعمه من حل لم يكشف عنه حجاب ، وقال : أعظم مايحجب به العبد عن مشاهدة الملكوت ، وعن دخول حضرة الله سوء المطعم ، وأذى الخلق وقال : حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت .

وقال : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد ، وقال : ليس بين العبد حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الذلة والافتقار :

وقال : العلوم ثلاثة ، علم ظاهر يبذل لأهل الظاهر ، وعلم باطن لايظهر إلا لأهله خوف الفتنة ، وعلم بين العبد وربه ، يستحيل إظهاره لأحد من الخلق ، وسئل عن الإسم الأعظم فقال : أروني الأصغر أريكم الأعظم ؟ أسماء الله كلها عظيمة ، أصدق وخذ أى إسم شئت يفعل معك .

وقال : أول دلائل المحبة دوام ذكر المحبوب ، ولا يستقر ذلك فى صميم القلب إلا بعد أن يكون التصديق والتحقيق زاده والتسليم والرضا مراده .

وقال : إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطفية ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته ، فلم يحجبهم بشىء .

وقال : يتفاضل الناس يوم القيامة بقدر يقينهم ، فمن كان أغزر يقينا كان من دونه فى ميزانه وأدنى مراتب اليقين ، الثقة بالله ، وأدنى مراتب التوكل ترك الاختيار.

يقول أبو طالب المكى : « كان أمامنا أبو محمد سهل رحمه الله تعالى يقول : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان ، حتى يكون فيه هذه الأربع . أداء الفرائض بالسنة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب النهى ، من الظاهر والباطن والصبر على ذلك حتى الممات »

وعن ابن عصام يقول : « سمعت سهل بن عبد الله يقول : لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر ، الأعمال بالتوفيق ، والتوفيق من الله ، ومفتاحها الدعاء والتضرع .

« البحث مستمر »